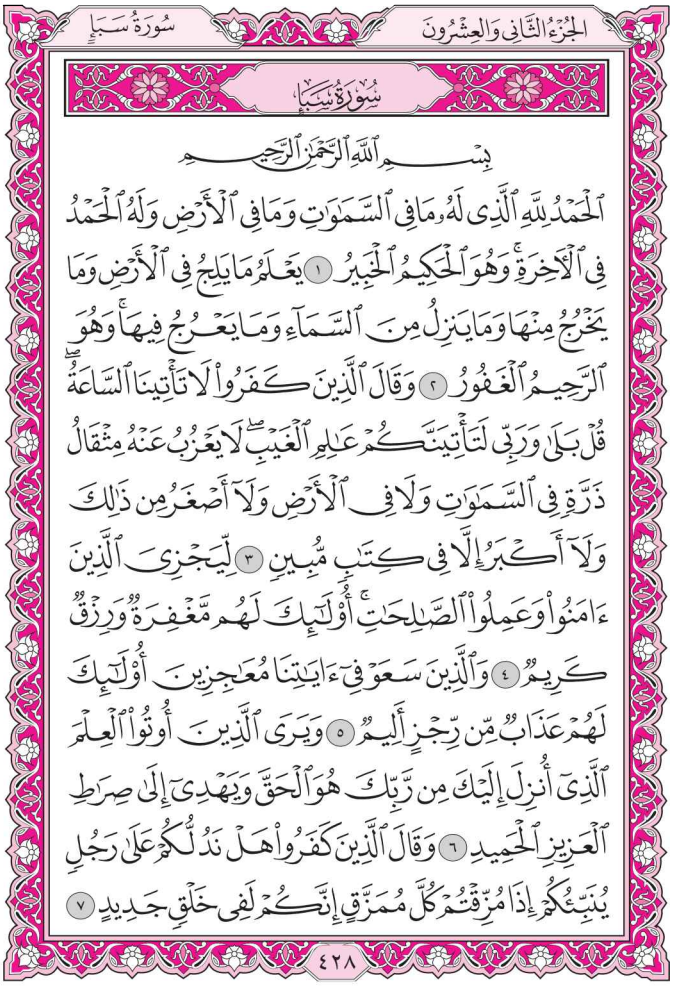

سورة سبأ

وهي مكية وآياتها أربع وخمسون آية.

[١] بدأ جل وعلا السورة بتمجيد نفسه، وأن له الحمد والشكر التَّامين، والحمد هو الثناء علىٰ المحمود بجميل صفاته علىٰ وجه التعظيم؛ وصفاته جل في علاه دائرة بين الفضل الذي يحمد ويشكر عليه، والعدل الذي يعترف بحكمته فيه ويحمد عليه، وَحَمَدَ نفسه هنا علىٰ أنه مالك الكائنات في السماوات والأرض يتصرف فيهما كيف يشاء، وأل التعريف في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، تعني: استغراق المحامد كلها، وكما اختُصَّ سبحانه بالحمد في الدنيا فله الحمد الخالص في الآخرة، وهو الحكيم في تصريف أمور العباد؛ حيث رتب أمور الدنيا والآخرة حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وهو الخبير ببواطن الأمور وظواهرها.

[٢] ثم أخبر جل شأنه أنه يعلم كل ما يدخل في باطن الأرض من قطرات المطر والكنوز والأموات والدواب، ويعلم ما يخرج منها من النبات والثروات والمياه، ويعلم ما ينزل من السماء من الأمطار والملائكة والكتب والأقدار والأرزاق، ويعلم ما يصعد إليها من الملائكة وأفعال الخلق والأرواح، وهو مع هذه القدرة وهذه العظمة وهذا الجلال؛ فإنه وحده الرحيم بعباده المؤمنين، ومن رحمته أنه لا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، وأنه الغفور لذنوب عباده القابل لتوبة التائبين العائدين إليه.

وهذه الآية الوحيدة في القرآن التي قُدمت فيها الرحمة علىٰ المغفرة؛ فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، وعلل ذلك الدكتور فاضل السامرائي فقال: السر أنه لم يذكر قبلها (عباد) فهو جل وعلا يقدم المغفرة عادة ليستبشر العباد المذكورون.

[٣] وبعد أن بين جل وعلا عظمته وقدرته في خلقه أخبر أن الكفار المنكرين للبعث الذين تكرر إنكارهم في القرآن كثيرًا، قالوا: لا تأتينا القيامة، فأمر جل شأنه نبيه ﷺ - وهو الصادق المصدوق الذي لم يجربوا عليه كذبًا - أن يقسم لهم بربه أن يوم القيامة سوف يأتيهم لا محالة، ولكن لا يعلم وقت مجيئه إلا الله عالم الغيب الذي لا يغيب عن علمه مثقال الذَّرَّةِ في السماوات والأرض؛ بل لا يغيب عنه ما كان أصغر من الذَّرَّةِ أو أكبر منها، وكل ذلك واضح بين مسطر في اللوح المحفوظ. والذَّرَّةُ هي: الهباءة أو النملة الصغيرة.

[٤] واعلموا أيها الكفار أن الساعة آتية لا محالة؛ ليثيب جل وعلا الذين آمنوا به بقلوبهم، وصدَّقوا رسوله ﷺ، واتبعوا ذلك بعمل الصالحات، أولئك سيغفر الله لهم ذنوبهم، وسيكفر عنهم سيئاتهم، وسيرزقهم ويهبهم رزقًا كريمًا، وهو النعيم المقيم في جنات النعيم.

[٥] أما المعاندون الذين بذلوا جهدهم في إطفاء نور الله، وصد الناس عن سبيل الله، ظانِّين بذلك أنهم يعجزون الله ويعجزون رسله؛ فأولئك لهم أسوأ العذاب وأقذره يوم القيامة.

[٦] يخبر جل وعلا أن أهل الإيمان - الذين أعطاهم الله العلم النافع - يرون أن الذي أنزله الله إليك من القرآن هو الحقّ الذي لا مرية ولا شكَّ فيه، وأنه يهدي ويدل إلىٰ صراط الله المستقيم الذي هو التوحيد والإسلام.

[٧] كرر جل وعلا في هذه الآية إنكار الكفار للبعث وبكَّتهم علىٰ عدم إعمال عقولهم لينجوا من عذابه؛ فأخبر سبحانه عما قالوه؛ حيث قالوا علىٰ سبيل السخرية والتهكم: هل ندلكم علىٰ رجل - يقصدون محمدًا ﷺ - يخبركم أنكم إذا متم وتمزقت أجسادكم وصرتم رفاتًا أنكم ستحيون وتبعثون من قبوركم مرة أخرىٰ؟ وهذا دليل علىٰ شدّة إنكارهم للبعث واستبعادهم له.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ
أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

[٨] ثم تساءل هؤلاء الكفار استهزاءً وسخرية فقالوا: هل اختلق هذا الرجل - يقصدون محمدًا ﷺ - علىٰ الله الكذب بزعمه أن الناس ستُبعث بعد موتها يوم القيامة؟ أم أنَّ به مسًّا من الجنون؟ فرد جل وعلا عليهم: ليس الأمر كما يزعم هؤلاء الكفار؛ بل إن المكذبين بالبعث في الشقاء العظيم، وفي الغواية الكبيرة، وفي الزيغ الذي لا نهاية له في الدنيا والآخرة.

[٩] ثم وَبَّخَ جل وعلا هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة قائلًا لهم: أفلم يشاهدوا عظيم قدرة الله فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض مما يبهر العقول؟، ثم هددهم سبحانه مبينًا لهم أن كل ما في الكون ملكه وتحت تصرفه؛ فإن يشأ يخسف بهم الأرض فيغوصون فيها، أو إن يشأ يسقط عليهم من السماء قطعًا من النار فتحرقهم، كما فعل بمن قبلهم ممن استحقوا العذاب، إن في هذه القدرة العظيمة لله لآية لكل عبد معتبر ومتأمل لما سلف.

[١٠] يخبر جل وعلا أنه فضَّل كل نبي وأعطاه المعجزات التي تناسب قومه، ومن هؤلاء داود عليه السلام؛ فأخبر سبحانه أنه أعطىٰ داود النبوة والكتاب وهو الزبور والملك، وأمر الجبال والطير أن تسبح بتسبيحه، وسخر له الحديد بأن ألَانَهُ وجعله كالعجين، حتىٰ يتمكن من أن يشكله كيف يشاء من غير أن يدخله في نار أو أن يطرقه بمطرقة.

[١١] ثم بين سبحانه أنه أَلَانَ له الحديد لينسج منه الدروع الطويلة الواسعة التي يُسْتَتَرُ بها في الحروب، وعلَّمه كيف يحكم نسج هذه الدروع ويجعلها حلقات متداخلة متناسبة؛ فلا تكون صغيرةً ضعيفةً لا تقوىٰ علىٰ الدفاع، ولا كبيرة ضخمةً فتُثقل كاهل لابِسِها، ثم أمر سبحانه وتعالىٰ آل داود بعمل الطاعات، واجتناب المعاصي، فإن الله بما تعملون بصير، لا يخفىٰ علي شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه كما امتن علىٰ داود عليه السلام ببعض المعجزات؛ فكذلك امتن علىٰ ابنه سليمان عليه السلام - الذي خلفه في الملك والنبوة - ببعض المعجزات؛ فسخَّر له الريح تحمله وتحمل جيشه، وتسير به من أول النهار إلىٰ منتصفه مسافة مسيرة شهر بمسير الدواب المعتاد، وأيضًا تسير به من منتصف النهار إلىٰ آخره مسافة مسيرة شهر بمسير الدواب المعتاد، فمسيرة شهرين تقطع في يوم واحد، وأذاب له النحاس حتىٰ صار كأنه عين ماء تجري؛ فكما ألان الحديد لأبيه داود عليه السلام، أذاب له النحاس، وسخر له الجن والشياطين يعملون بين يديه ما يشاء بإذن الله، ثم أخبر سبحانه أن من يَزِغْ من هؤلاء الجن عن أمر الله الذي أمروا وكلفوا به وهو طاعة سليمان عليه السلام فسوف يذوق من عذاب النار المستعرة التي خلقها الله لكل من يبتعد عن أَمْرِ الله الذي بلغتهم به أنبياؤهم عليهم السلام.

[١٣] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الجن كانوا يعملون له ما يشاء وما يريد من مبانٍ محكَمةٍ فخمةٍ للتعبد فيها، ويعملون له ما يريد من صور الحيوانات والجمادات من النحاس والزجاج والرخام وغيرها، ويعملون له أواني عظيمة ضخمة كأحواض الإبل؛ يجتمع عليها العدد الكبير من الأَكَلَة، ويعملون له ما يريد من القدور الكبيرة الراسية التي لا تزول عن أماكنها لكبرها وعظمتها، ثم قال جل في علاه لآل داود: اعملوا ياآل داود بطاعة الله شكرًا له علىٰ نعمه بأن أعطاكم ومكنَّكم، فإن القليل من عباد الله من يُكثرُ شكر الله علىٰ نعمه وآلائه.

[١٤] فلما انقضىٰ أجل سليمان، وحكم جل وعلا عليه بالموت؛ فمات واقفًا يصلي متكئًا علىٰ عصًا غليظة، واستمر زمنًا واقفًا، ولم تستدل الجن علىٰ موته إلا عن طريق دابة الأرض، وهي النمل الأبيض التي نخرت عصاه الغليظة فسقط علىٰ الأرض، فلما سقط عليه السلام حينها علمت الجنُّ بموته، وتبين للناس أن الجن لا يعلمون الغيب - كما زعموا -؛ إذْ لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان عليه السلام، وَلَمَا أقاموا مدَّةً طويلةً في الخدمة والعمل الشاق الذي سخرهم فيه سليمان عليه السلام.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ
كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ
وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن
دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

[١٥] ثم بين سبحانه أنه جعل لقوم سبأ الذين يسكنون مأرب في اليمن علامةً على قدرته وعظيم فضله وإنعامه؛ حيث جعلهم الله في رغد من العيش؛ فجعل لهم جنَّتين عظيمتين عن يمين وشمال الوادي الذي يجري فيها الماء الصادر من سد مأرب العظيم الذي بنوه لينتفعوا من مياه الأمطار، وهاتان الجنتان تمتدان إلى مسافات طويلة، وفيهما من جميع أنواع الثمار والخيرات، وقيل لهم على لسان نبيهم: كلوا من ثمار هاتين الجنتين، وأدوا شكر الله، فقد رزقكم الله ببلدٍ طيبٍ كثير الأشجار، طيب الثمار، وتكفل لكم بمغفرة ذنوبكم إن استغفرتم وتبتم.

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: لم يُكَلِّفُوا إلا بالاعتراف أن الرزق من الله، وأن يشكروه على ذلك.

وسبأ قبيلة عربية يمنية يقال: إنهم أولاد سبأ بن يشجب، كانوا على شاطئ نهر مأرب التي كانت بلقيس ملكة فيه.

[١٦] ثم بين سبحانه أنهم أعرضوا عن الإيمان وأعرضوا عن الشكر، وكفروا بنعم الله؛ فأرسل الله عليهم سيْلًا جارفًا، فدمَّر سدَّهم، ودخل الماءُ بساتينَهُمْ فأغرقها وخرَّب الزروع، وأهلك البهائم والناس الذين لم يستطيعوا الفرار، وأعطاهم جل وعلا بدل جنتيهم جنتين فيهما ثَمَرٌ مرٌّ كريه الطعم، وفيهما شجر الأثل، وشيء قليلٌ من شجر النبق.

[١٧] وهذا التبديل الذي أصاب أهل سبأ والدمار الذي لحق بهم كان بسبب كفرهم وجحودهم، وعدم شكرهم، وهل يعاقب جل وعلا بهذا العقاب إلا من جحد وكفر بآياته؟!

[١٨] ثم بين سبحانه أنه جعل بين أهل سبأ، وبين القرى التي بارك الله فيها، وهي أرض الشام: قرًى متواصلةً مرتفعةً، ويسر لهم السير فيها في أسفارهم، فكانت المسافات بين تلك القرى قريبة، فلا يكاد يرتحل المسافر منهم من قرية إلا ويدخل التي تليها، وسير سبحانه لهم السير في أسفارهم ليلًا ونهارًا، آمنين على أنفسهم وتجاراتهم وأموالهم، لا يخافون عدوًّا، ولا جوعًا، ولا عطشًا.

[١٩] لكن هؤلاء القوم كفروا بهذه النعمة أيْضًا، وقالوا في بلاهةٍ وبجاحة وحُمْقٍ: ربنا اجعل بيننا وبين مقاصدنا في أسفارنا مسافاتٍ متباعدة نذوق فيها العناء والتعب!! فتجاوزوا بذلك حدودهم، وعرَّضوا أنفسهم لزوال النعم وحلول النقم، ونزل بهم أمرُ الله، وسلبهم الله النعم التي كفروا بها، وجعلهم الله عبرةً للمعتبرين على مر الأزمان، وفرقهم الله في البلاد كلَّ تفريقٍ، واعلموا أيها الناس أن فيما حدث لقوم سبأ لآية وعلامة وعبرة ينتفعُ بها كلُّ صبَّار كثير الصبر على الطاعات وعن المعاصي، وعلى الأقدار، وكلِّ شكورٍ كثير الشكر لنعم الله.

[٢٠] ثم أخبر سبحانه أن ظن إبليس بالناس قد تحقق؛ حيث ظنَّ أن الناس سيطيعونه ويتبعونه فيما يزينه لهم ويأمرهم به من الضلال؛ حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]، فكان الأمر كما ظنَّ؛ فصدَّق إبليس ظنَّه فاتبعوه في ما أمرهم به من الشرك والضلال؛ إلا فريقًا وطائفةً من المؤمنين لم يستجيبوا له ولم يتبعوه، وهم عباد الله الموحدون المخلصون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

[٢١] واعلموا أيها الناس أنه ما كان لإبليس على الناس من تسلطٍ وقهرٍ فيما يدعوهم إليه؛ وإنما منه مجرد الوسوسة والتزيين، ليُمتَحن الناس، وليتميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق والكافر، وليظهر من يؤمن بالآخرة وبالبعث إيمانًا جازمًا، ويتبين من هو في شك وريْبٍ من ذلك، واعلم يانبي الله أن ربك على كل شيء حفيظ؛ فيحفظ للناس أعمالهم، ويحفظ لهم مجازاتهم عليها.

[٢٢] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين زعمتم أنهم شركاء لله، فانظروا هل يجيبونكم؟!، وهل يملكون لكم وزن ذرَّةٍ من جلب نفعٍ أو دفع ضرّ؟!، والحق: أنه ليس لتلك الآلهة المزعومة شيء من ذلك، وليس لهم في السماوات والأرض من شركة، ولو بنسبة ضئيلة، وليعلم الجميع أنه ليس لله جل في علاه من هذه الآلهة المزعومة ولا من غيرها من معاونٍ له، أو مساعدٍ يعاونه أو يساعده في الملك والتدبير؛ فهو سبحانه المدبر لكل شيء.

وهذه الآية كما قال بعض العلماء: اجتثت جذور الشرك.

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ
﴿٢٣﴾ ۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ
وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل
لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ
﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا
بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

[٢٣] بين جل وعلا أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له بالشفاعة، والشفاعة هي طلب العفو أو الفضل من شخص لآخر، ومن عظمته جل في علاه أنه إذا تكلم سبحانه بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أُرعدوا من الهيبة والخوف، حتىٰ يلحقهم مثل الغشي، فإذا زال الفزع عن قلوبهم سأل بعضهم بعضًا: ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة؟ قالت الملائكة: قال: الحق، أي: أن الله أذن بالشفاعة للمؤمنين، وأما الكفار والمشركون والمنافقون فلم يأذن لهم سبحانه بالشفاعة، واعلموا بأنه جل في علاه العليُّ بذاته وقهره وعلوِّ قدْره، الكبير في ذاته وصفاته.

[٢٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: من الذي يُنَزِّلُ لكم الرزق من السماء، ويخرجه لكم من الأرض؟! ثم أجبهم بالإجابة التي لا تُنكرها قلوبهم وصدورهم: إن الرازق هو الله، واعلموا ياقوم أن أحدنا علىٰ هدًىٰ متمكِّن منه، والآخر منغمس في الضلال البين الواضح، فهل الذي يصرف العبادة للخالق الرازق علىٰ الحق؟!، أم الذي يصرفها لغيره؟!

[٢٥] ثم قل لهم يانبي الله: كلٌّ منَّا له عملٌ سيُسأل عنه: فأنتم لا تسألون عن أعمالنا ولا عن ذنوبنا وجرائمنا - إن وقع منَّا ذلك -، ونحنُ أيضًا لا نُسأل عن أعمالكم، ولا نُؤَاخَذُ بها، وإنما يعاقب كل إنسان بما ارتكب من الأخطاء.

[٢٦] ثم قل لهم يانبي الله أيضًا: إن الله سيجمع بيننا يوم القيامة، وسيقضي بيننا قضاءً عادلًا، وسيتبين حينها الصادق الذي علىٰ الحق، من الكاذب الضال، وهو سبحانه الفتاح الذي يحكم ويقضي بالحق، وهو العليم بتفاصيل ودقائق الأمور، فلا تخفىٰ عليه خافية، ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض.

[٢٧] ثم قل لهم يانبي الله: أروني هؤلاء الذين ألحقتموهم بالله وجعلتموهم شركاء له تصرفون لهم أنواع العبادة، لأنظر بأي وصف استحقت العبادة؟ كلَّا أيها المشركون، فإن الله جل في علاه لا شريك له، ولا معبود بحق إلا هو، وهو سبحانه العزيز القوي الغالب الذي قهر كل شيء، وهو سبحانه الحكيم في تدبير خلقه وشؤون عباده.

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل محمدًا ﷺ لجميع الناس لكي يبشرهم بالتوحيد وثواب الله عليه، وينذرهم ويحذرهم من الشرك وعقاب الله عليه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون العلم الصحيح أن الله أرسله ﷺ رسولًا للثقلين.

[٢٩] ثم أخبر سبحانه عن مقولة هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث الذين يقولون سخرية واستهزاءً: متىٰ يتحقق ما وعدنا به محمد ﷺ وأصحابه من البعث والنشور، إن كانوا صادقين في وعودهم؟!

[٣٠] ثم أمر جل في علاه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها المشركون أن الله قد حدَّد لكم يومًا يتحقق فيه هذا الوعد، وضرب لكم أجلًا سترون فيه ما وعدكم به، وهذا الموعد لا يتقدّم ساعة بسبب استعجالكم له، وإذا جاءكم ووقع بكم ورأيتموه؛ وأيقنتم بوقوعه؛ فإنه لا يتأخر ساعة واحدة لتتوبوا وترجعوا، وحينئذٍ يكون قد انتهىٰ وقد العمل، وطويت الصحف، فلا تقبل من أحد توبة.

[٣١] ثم أخبر جل شأنه بما يقول الذين كفروا وجحدوا بآيات ربهم وكتبه؛ حيث يقولون في عنادٍ واستكبار: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السابقة من التوراة والإنجيل والزبور؛ وهؤلاء الجاحدون الذين قالوا هذا الكلام لو تراهم يانبي الله يوم القيامة وقد تملكتهم الحسرة والندامة، وهم موقوفون أمام الله للجزاء والحساب؛ لرأيت أمرًا عظيمًا، ولرأيتهم يتلاومون ويتراجعون، فيقول المستضعفون - وهم الأتباع - للمستكبرين - وهم القادة -: أنتم السبب فيما نحن فيه من العذاب والشقاء، فلولا أنكم كنتم تصدوننا وتحجزوننا وتمنعوننا عن الإيمان بالله واتباع الرسول ﷺ؛ لكنَّا من المؤمنين المصدِّقين الناجين.
ولا شك أنهم غير صادقين في قولهم؛ ودليل ذلك أن الله فضحهم لما حزن الرسول عليهم لعدم استجابتهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ
عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ
تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ
هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤
وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥
قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ
عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ
ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ
يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨
قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ
وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩

[٣٢] فيجيب القادة المتبوعون أولئك الأتباع قائلين لهم: هل نحن منعناكم بالقوة والقهر عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ بعد إذْ جاءكم؟!، لقد كفرتم من ذات أنفسكم؛ بل إننا أشرنا عليكم بما نحن عليه ولم نجبركم، ولكنكم أصررتم على الكفر والفساد، كما قال الشيطان لأتباعه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢].

[٣٣] فرد المستضعفون من الأتباع قائلين: بل كنتم تخدعوننا، وتمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتزينون لنا الكفر، وتأمروننا أن نشرك بالله ونكذب برسوله ﷺ، ونجعل لله أمثالًا ونظراء نصرف لهم العبادة من دون الله؛ فلما عرف كل فريق منهم أن هذه المراجعة لن تغني عنهم شيئًا من عذاب الله؛ أسرَّ كل فريق منهما الندامة الشديدة، والحسرة العظيمة في نفسه لمَّا رأوا ما ينتظرهم من العذاب والنكال، ومن ذلك: أنهم يُغلُّون بأغلال من حديدٍ تُطوَّقُ بها أعناقهم، ثم أخبر جل شأنه فقال: هل يُجزىٰ هؤلاء المشركون ويعذبون إلا بسبب شركهم، وصدهم عن سبيل الله، واتباعهم دعاة الطغيان وأئمة الضلال؟!

[٣٤] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: وما أرسلنا في قرية من رسول يأمرهم بالتوحيد، ويحذرهم وينذرهم وينهاهم عن الشرك؛ إلا قال أصحاب الغنىٰ والترف من أهل هذه القرية: إنا بما أُرسلتم به مكذبون جاحدون.

[٣٥] ثم قال كفار ومشركو مكة المترفون من أصحاب الجاه والمال، للفقراء من المؤمنين المستضعفين، قالوا معتزين بقوتهم: نحن أكثر منكم مالًا وأولادًا، فلن نُعَذَّبَ في الآخرة إن كان هناك آخرة، وهذا تكذيب منهم للبعث والجزاء. وقد حكىٰ جل وعلا عنهم مثل هذا في سورة المؤمنون؛ حيث قال: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥ - ٥٦].

[٣٦] وهنا يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الناس المعاندين المغترين: اعلموا أيها الكفار أن الله ربي جل شأنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده مؤمنهم وكافرهم، ويُضَيِّقُ علىٰ من يشاء من المؤمنين والكافرين؛ امتحانًا لهم ليعلم الشاكر عندما يرزقهم، ويعلم الصابر المحتسب عندما يضيق عليهم، كل ذلك يتم حسب مشيئته المبنية علىٰ الحِكَم البالغة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن عطاء المال والعز والجاه إما أن يكون استدراجًا أو يكون ابتلاء؛ لأنهم لا يعلمون مراد الله وأسراره في خلقه.

[٣٧] واعلموا أيها الناس أن أموالكم وأولادكم ليست هي التي ترفع درجاتكم وتقربكم عند الله عز وجل، ولكن الذي ينجيكم ويقربكم منه سبحانه هو الإيمان بالله والتصديق برسوله ﷺ، وما تقدمونه من العمل الصالح، وهؤلاء الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة سيضاعف الله ثواب أعمالهم كما أخبر بأن الحسنة بعشر أمثالها، وهم في أعالي منازل الجنة وقصورها آمنون مطمئنون قد نجوا من العذاب، ومن كل ما يكدر صفو حياتهم.

[٣٨] وأما أولئك الفجار الذين يسعون في إبطال آيات الله القرآنية، ويصدون الناس عن سبيله؛ ظانِّين أنهم يُعْجِزُوَن الله بمكرهم وخبثهم؛ فاعلم أن الزبانية سوف تحضرهم يوم القيامة وتدخلهم في جهنم فلا يخرجون منها أبدًا.

[٣٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المغترين بأموالهم وأولادهم: إن ربي جل في علاه يوسِّع الرِّزق علىٰ مَن يشاء من عباده، ويضيِّقه علىٰ من يشاء؛ ابتلاءً وحكمة، ثم حث جل وعلا أصحاب السعة علىٰ الإنفاق في وجوه الخير، وأخبر أنه يعوض المحسنين في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالثواب، كما قال ﷺ: **«ما نَقَصَت صدقةٌ من مالٍ»**(١)، وهو سبحانه خير الرازقين وخير المعطين.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟
يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟
يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟
رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن
تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن
جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ
مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ۚ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

[٤٠] واذكر يانبي الله يوم يجمع جل وعلا الكفار جميعًا، ويحشر المعبودين من دونه من الملائكة، ثم يقول للملائكة علىٰ سبيل التوبيخ والتقريع للمشركين الذين عبدوهم: أهؤلاء الذين كانوا يعبدونكم من دوني؟!!

[٤١] فتبرأ الملائكة من هؤلاء المشركين، وتُنزِّه الله جل في علاه قائلةً: سبحانك ربنا، نُنَزِّهك ونقدسك عن الشريك والمثيل، فأنت ياربنا وليُّنا، نوحدك ونعبدك، ولا نشرك بك شيئًا، وهؤلاء المشركون ليسوا لنا بأولياء؛ بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين، ويطيعونهم في اتخاذ الشركاء والأنداد، وأكثرهم مصدقون للجنّ منقادون لهم.

[٤٢] ثم يخبر جل وعلا أنه في يوم القيامة لا يملك أحدٌ لأحدٍ نفعًا من شفاعة ونجاة، ولا ضرًّا من عذاب وهلاك، ونقول للذين ظلموا وأشركوا: ذوقوا عذاب النار التي كنتم تكذبون وتستهزؤون به في الدنيا، ولدخولها تستعجلون.

[٤٣] ثم يخبر سبحانه وتعالىٰ أن هؤلاء الكفار إذا تتلىٰ عليهم آيات القرآن الواضحات المبينات للحق، قالوا علىٰ سبيل الإنكار والاستهزاء: اعلموا أن هذا الذي يدَّعي أنه رسول ما هو إلا رجل مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان يعبد آباؤكم وأجدادكم من الأوثان والأصنام، ثم قالوا عن القرآن: وما هذا القرآن الذي يتلوه علينا إلا كذب ومختلق، جاء به من عند نفسه، وليس من عند الله، ثم قال هؤلاء الكفار عن كل ما جاء به الرسول ﷺ: وما هذا الذي جئتنا به يامحمد إلا سحر واضح.

[٤٤] وما أنزلنا علىٰ قومك يامحمد كتابًا قبل القرآن، يكون عمدةً لهم في تكذيبك، ولا أرسلنا إليهم قبلك من نذير أو رسولٍ يتبعون أقواله في رد ما جئتهم به، فمن أين عرفوا أن هذا القرآن سحر مبين؟ فما هو إلا محض الجهل والبغي والتكذيب.

كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾[الروم:٣٥]. وقال ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[الزخرف:٢١].

[٤٥] واعلم يانبي الله بأن الأقوام السابقين الذين جاءوا قبل قومك؛ كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يبلغ قومك من كفار مكة عُشْرَ ما أعطينا تلك الأمم من القوة والمال وطول العمر؛ فلما كذبوا رسلي، ولم يؤمنوا بهم؛ أهلكناهم ودمرناهم، فانظر يانبي الله كيف كان إهلاك الله وتدميره لهم! ألم يكن تدميرًا هائلًا وفظيعًا؟!

[٤٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المكذبين المعاندين من قومك: إنما أنصحكم وأوصيكم بكلمة واحدة؛ بأن تتحروا الحق من أجل الله، ويتناقش كل اثنين مع بعضهم البعض، أو يتناقش كل واحد مع نفسه بتجرد؛ بعيدًا عن العصبية وعن الجماهيرية والغوغائية؛ لتتفكروا فيما يدعو إليه صاحب هذه الرسالة - وهو محمد ﷺ، وفيما نسب إليه -؛ الذي تعرفون نسبه وصدقه وأمانته، وكنتم تسمونه الصادق الأمين؛ هل به جنون، أو جربتم عليه كذبًا، أو شعوذة؟، وسوف تصلون إذا تجردتم عن الأغراض الشخصية، وقصدتم الوصول إلىٰ الحقيقة؛ بأنه رسول من الله، وليس به شيء من الجنون؛ بل سترون أنه أصدق الناس، وأرجحهم عقلًا، وأنقاهم قلبًا، وأنه مرسل لكم ليحذِّركم ويخوِّفكم من عذاب يوم القيامة الشديد؛ الذي سيحل بكل من كفر وجحد بآيات الله ولم يؤمن بها، وهذا العذاب الذي يحذركم منه يوشك أن يقع عليكم.

[٤٧] وقل لهم يانبي الله: إني ما أسألكم ولا أطلب منكم مالًا علىٰ تبليغ الرسالة وعلىٰ اتباعكم الحق، وإن كان ثمة أجرًا ومقابلًا علىٰ اتباعكم الحق؛ فهو لكم، وإنما أجري وثوابي فهو علىٰ الله، والله جل في علاه شهيدٌ مطَّلعٌ عليَّ وعلىٰ أعمالي، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، ومطلعٌ عليكم وعلىٰ أعمالكم، وسيجازي كلًّا بما عمل.

[٤٨] وقل لهم يانبي الله: إن الله يقذف بالحق والتوحيد علىٰ الباطل والشرك بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة؛ فيدمغ الشركَ ويفضحه ويهلكه، والله جلَّ في علاه علَّام الغيوب، يعلم ما غاب عن أبصار الناس وإدراكهم، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن
مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

[٤٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لقد جاء الإسلام والتوحيد والنور، وذهب الباطل والشرك والظلام، ولم يبق من الباطل شيء، ولم يعدْ له إقبال ولا إدبار.

[٥٠] وقل لهم يانبي الله: إن ضللتُ وابتعدتُّ عن طريق الحق والصواب؛ فإثم ذلك عائدٌ عليَّ - وحاشاه من ذلك صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وإن اهتديتُ فليس ذلك بحولي وقوتي، وإنما بفضل ما يوحَىٰ إليَّ من ربي من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن، إن ربي سميعٌ لجميع الأصوات، قريبٌ من عباده، مجيبٌ لمن دعاه وآمن به.

[٥١] ولو ترىٰ يانبي الله حال الكفار حين يخرجون من قبورهم فزعين، ثم يرون العذاب؛ لرأيت أمرًا عظيمًا، حيث اعتراهم الفزع والهلع مما يرون، وليس لهم مهرب ولا نجاة من عذاب الله، وقد أُخذوا إلىٰ مصيرهم ونهايتهم وهي النار والعياذ بالله.

[٥٢] وعندما رأىٰ المشركون العذاب قالوا علىٰ سبيل الندم: آمنا بالله، وصدقنا رسوله ﷺ، ولكن أنَّىٰ لهم تناول الإيمان في الآخرة؟! فمحلُّ الإيمان والتصديق هو الدنيا، لا حينَ معاينة العذاب؛ فندموا حين لا ينفع الندم ولا تنفع التوبة.

[٥٣] وهؤلاء الكفار الذين أعلنوا ندمهم وقالوا: إنهم آمنوا بالله وصدقوا الرسول ﷺ؛ فقد كذَّبوا بالإيمان وجحدوا آيات الله ورسله وهم في الدنيا، فكيف لهم الإيمان والتصديق في هذا اليوم؟، في حين أنهم كانوا يرمون محمدًا ﷺ بالظن الكاذب بسبب جهلهم وعنادهم؛ حيث كانوا يقولون: بأنه ساحر، وشاعر، وبه جنون، وأنه ليس هناك شيء اسمه بعث، أو جنة أو نار، يقولون ذلك من دون مستند ولا حجة، فإيمانهم اليوم لا فائدة منه؛ فهم مثل الذي يطلب شيئًا بعيدًا جدًّا عنه ولا يراه!.

[٥٤] وهؤلاء الكفار الذين أرادوا الإيمان بالله وتصديق رسوله ﷺ يوم القيامة؛ قد حُجِزَ وَفُصِلَ بينهم وبين ما يتمنون من قبول توبتهم، أو العفو عنهم ورجوعهم إلىٰ الدنيا ليؤمنوا، كما فُعِلَ بأمثالهم من الأمم السابقة الكافرة، لأنهم كانوا مثلهم في الدنيا في شك وريب من هذا الدين.

سورة فاطر

سورة فاطر مكيّة وآياتها خمس وأربعون آية.

[١] ابتدأت السورة بالثناء علىٰ الله الذي له الحمد كله، وهو جل وعلا حمد ذاته تعليمًا لعباده أنه هو المستحق للمحامد كلها، فالحمد المطلق والثناء التام لله خالق السماوات والأرض ومبدعهما علىٰ غير مثال سابق، وجاعل الملائكة رسلًا يرسلهم إلىٰ أنبيائه وإلىٰ من يشاء من عباده، وخالقهم علىٰ صفات مختلفة عجيبة؛ فمنهم من خلقه بجناح واحد، ومنهم من خلقه بجناحين، ومنهم من خلقه بثلاثة أجنحة، ومنهم من خلقه بأربعة أجنحة، يزيد جل وعلا في خلقه ما يشاء، إنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢] واعلموا أن ما يمنحه جل وعلا لعباده من نعمه التي لا تعد ولا تحصىٰ؛ لا يقدر أحد علىٰ إمساكها ومنعها، وكذلك ما يمنعه ويحبسه سبحانه عن عباده من النعم لا يستطيع أحد جلبها وإرسالها لهم، وهو جل في علاه العزيز الذي لا يغلبه غالب، الحكيم الذي يضع الأمور في مكانها بحسب الحكمة والمصلحة التي يراها سبحانه.

[٣] ياأيها الناس تذكروا نعم الله العظيمة عليكم، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، واستديموا علىٰ ذكرها وحفظها بالشكر والثناء والطاعة، وأداء ما عليها من الحقوق كالزكاة وغير ذلك، واعلموا أنه لا خالق غير الله تعالىٰ يرزقكم من السماء بالمطر وغيره، ومن الأرض بالزروع والثمار وغيرها، فلا إله مستحق للعبادة والطاعة إلا الله جل في علاه؛ لأنه هو الخالق لكل شيء، وما دام الأمر كذلك فكيف تصرفون العبادة لغيره وتشركون به سبحانه؟!.